السياق التخاطبي وآفاق الدلالة القرآنية

د. محمد عبدالله علي العبيدي
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
جامعة قطر

توطئة

شهدت الدراسات اللسانية المعاصرة تطورات هائلة، ولا سيما في مجال الدراسات النصية والسياقية وتحليل الخطاب، وكان لظهور الاتجاه التخاطبي/التداولي أثر واضح في إثراء البحث اللساني. وذلك بالاهتمام بالسياق المقامي للخطاب، أي: بالبعد الاستعمالي أو الإنجازي للكلام، فعند دراسة حدث كلامي معين لا بد من النظر في عناصر الخطاب: المتكلم والمخاطب وملابسات الخطاب، فعملية التخاطب لا تكون ناجحة بالنظر إلى الكفاية اللغوية للمتكلم، وفي سلامة الكلام اللغوية والقواعدية فحسب، وإنما يجب النظر في الجانب التأثيري للخطاب، ومن ثم تتحول الكفاية اللغوية إلى كفاية تواصلية، ويمكن قياس نجاح الحدث الكلامي من خلال البعد التأثيري في المخاطب.

ويرمي هذا البحث إلى قراءة الخطاب القرآني قراءة تستلهم مخرجات

الدرس اللساني الحديث، محاوِلة تسليط الضوء على الجهود الرائدة في التراث العربي الإسلامي التي أسهم بها العلماء ولا سيما المفسرون والأصوليون والبلاغيون في مجال التأسيس لدراسة الخطاب دراسة استعمالية سياقية، إذ إنهم في ممارساتهم الإجرائية في دراسة النصوص تجاوزوا مفهوم اللفظ والجملة إلى المفهوم النصي، ثم إلى المفهوم التخاطبي.

ويبدو أن علماءنا تنبهوا إلى تخاطبية النص القرآني، بمعنى أنه خطاب هادف يرمي إلى تغيير فكر المخاطَب وسلوكه، فضلاً عن اقتضائه المخاطَب وتأثيره فيه.

في مفهوم السياق:

يقال: ساق الماشيةَ يسوقها سَوْقاً وسياقاً ومَساقاً، وأساقها فهو سائق وسوَّاق[(١)]، «وقد أَسَقته إبلاً، أي: أعطيته إبلاً يسوقها. . . وسقت الإبل أسوقها سَوْقاً وسياقاً»[(٢)]، «والسِّيقة: ما يُساق من الدواب»[(٣)]، والرياح تسوق السحاب فهو سَيِّق[(٤)]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

والسياق: المهر، يقال: ساق الرجلُ إلى المرأة الصداقَ والمهر سياقاً، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبلُ وهي التي تساق، وكان العرب إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً، لأنّها كانت الغالب على أموالهم، ثم وضع السياق موضع المهر وإن لم يكن إبلاً أو غنماً[(٥)].

(١) ينظر: الصحاح (سوق): (١٤٩٩/٤)، ولسان العرب (سوق): (٤٣٤/٦)، والقاموس المحيط (ساق): (٢٤٧/٣).
(٢) إصلاح المنطق: (٢٧٠/١).
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ساق): ٤٣٦.
(٤) ينظر: الصحاح (سوق): (١٥٠٠/٤)، وتاج العروس (سوق): (٤٧٦/٢٥).
(٥) ينظر: لسان العرب (سوق): (٤٣٥/٦)، والقاموس المحيط (ساق): (٢٤٧/٣)، وتاج العروس (سوق): (٤٧٥/٢٥).



والتساوق والانسياق: التتابع، يقال: انساقت الإبل وتساوقت تساوقاً، أي: تتابعت[1]، «والمساوقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضاً»[2]. «والسياق: نزع الروح، يقال: رأيتُ فلاناً يسوق، أي: ينْزع عند الموت»[3]، ويقال: فلان في السياق، أي: في النَّزع، كأن روحَه تُساق لتخرج من بدنه[4]. والسُّوقُ: المكان الذي يباع فيه ويُشترى، وسُمِّيت بذلك، لأن التجارة تُجلب إليها، وتساق المبيعات نحوها، وسوقُ الحرب: حوْمة القتال، وقد قيل: إن ذلك من سَوْق الناس إليها[5]. وسياق الحديث: سرده وتتابعه، يقال: «هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوقه: على سرده»[6].

ومن هنا يمكن القول: إن السياق يحمل معنى الدفع والحث على السير، وسياق الكلام يدفع إلى المعنى، ويسهِّل الوصول إليه. والسياق يحمل معنى التتابع والتناسق، أي: إن المعنى لا يتبدّى إلا من خلال دراسة سلسلة الكلام وتتابعه، فهو يكشف عن نظام الكلام وتناسقه وترابطه، وهو بذلك يشبه قافلة الإبل التي تسير على وفق نظام معين إلى غاية محددة. والسياق يوصل إلى بؤرة الموضوع التي ترتبط بِها المعاني المختلفة في النص، فالسُّوق سمِّيت بذلك لأن المبيعات تساق إليها من أماكنَ مختلفة[7].

وسياق الحديث تتابعه وتواليه وسرده وتوجيهه نحو الغاية المقصودة على وفق نسقٍ معيَّن، وسياق الكلام هو ما يرمي إليه.

---

(١) ينظر: لسان العرب (سوق): (٦/٤٣٥).

(٢) تاج العروس(سوق): (٢٥/٤٨٢).

(٣) الصحاح (سوق): (٤/١٥٠٠)، وينظر: العين (سوق): (٥/١٩٠).

(٤) ينظر: لسان العرب (سوق): (٦/٤٣٥).

(٥) ينظر: العين (سوق): (٥/١٩١)، ولسان العرب (سوق): (٦/٤٣٦).

(٦) أساس البلاغة (سوق): ٢٢٥، وينظر: تاج العروس (سوق): (٢٥/٤٨٣).

(٧) دلالة السياق في القصص القرآني: ٢٤.

وينطلق الدكتور تمام حسان من هذا المفهوم اللغوي للسياق إلى المفهوم الاصطلاحي، إذ يربط مفهوم السياق بالتوالي من زاويتين، أولاهما: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، ويسمى السياق من هذه الزاوية: (سياق النص)، والثانية: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي، وكانت ذات علاقة بالاتصال ويسمى السياق من هذه الزاوية: (سياق الموقف)[(١)].

والواقع أن مصطلح السياق لم يكن غريباً في الثقافة العربية القديمة، إذ نجده بلفظه أو بأحد مرادفاته ـ مثل: (المقام، الحال، سياق الحال، القرائن اللفظية وغير اللفظية) ـ في كتب اللغة والبلاغة وأصول الفقة والتفسير وعلوم القرآن وغيرها، فالإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) أشار إلى أهمية السياق في تحديد الدلالة وتوجيهها، فالكلام قد يكون «عاماً ظاهراً يراد به العامّ ويدخله الخاصُّ، فيستدلُّ على هذا ببعض ما خوطِب فيه، وعامًّا ظاهراً يراد به الخاص، وظاهراً يُعرف من سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكلٌّ هذا موجود علمه في أول الكلام، أو وسطه، أو آخره»[(٢)]. ويبدو أنه أول من صرح بمصطلح السياق وأراد به طريقة تتابع الكلام وغرضَه.

ويتفرّد الأصوليون ـ على حدِّ علم الباحث ـ بتحديد مفهوم السياق تحديداً واضحاً، إذ يرون أن «قرينة السياق هي ما يؤخذ من لاحقِ الكلامِ الدَّال على خصوصِ المقصودِ أو سابِقهِ، . . . وتسمَّى: دلالة السياقِ»[(٣)].

ويشير ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) إلى أن «السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوُّع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على

---

(١) ينظر: قرينة السياق للدكتور تمام حسان ٣٧٥، بحث قُدِّم في (الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم) مطبعة عبير للكتاب سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) الرسالة: ٥٢.

(٣) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: (١/٢٣).



مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته؛ فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، كيف تجد سياقه يدلُّ على أنه الذليل الحقير»[١].

وتتلخص نظرية السياق عند اللغويين المحدثين في أن الألفاظ تستمد دلالاتِها من السياقات التي تُستعمل فيها، و«تنهل كل كلمة معناها من السياق الذي ترتبط به»[٢]، إذ «إن الكلمة لا يتضح معناها إلا من خلال الاستعمال، وبناءً على هذا يمكن القول: إن معنى الكلمة هو مجموع استعمالاتِها»[٣]. والاستعمال اللغوي يحكمه أمران، الأول: السياق اللغوي نفسه، فالكلمات ليست وحدات منعزلة، والكلمة لا يتحدّد معناها إلا من خلال علاقاتِها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية. والثاني: سياق الموقف الذي يؤدي وظيفة مهمة في تحديد المعنى[٤].

وقد تبلور مفهوم السياق في الدراسات اللغوية الحديثة عند (فيرث) في دراسته اللغوية، إذ نظر «إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبه من صوت وصورة، ولكنه أيضاً حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكتسب دلالاتِها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي: من خلال سياق الحال»[٥]، «وقد أكد (فيرث)... التوازي بين السياقات الداخلية والشكلية... وبين السياقات الخارجية للموقف»[٦]، وعلى هذا

(١) بدائع الفوائد: (٨١٥/٤).

(٢) علم الدلالة (بيار جيرو): ٥٦.

(٣) علم الدلالة (كلود جرمان وريمون لوبلان): ٤٤.

(٤) ينظر: أصول تراثية في اللسانيات: ٢٥٠، ودلالة السياق في القصص القرآني: ١٧ ـ ١٩.

(٥) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة: ٨١ ـ ٨٢.

(٦) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب: ٣٤٩.

تقتضي دراسة معاني الكلمات تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، سواء أكانت لغوية أم غير لغوية.

إن معنى السياق لا يقتصر على النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بل ينبغي أن يشمل كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات؛ والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها أهميتها البالغة في هذا الشأن(١)، وهذا النوع من السياق هو السياق التخاطبي الذي يعنى هذا البحث بدراسته، ويتمثل في كل ما يحيط بالحدث الكلامي، من مكونات وملابسات تتعلق بالمخاطِب والمخاطَب وطبيعة موضوع الخطاب وغرضه والمناسبة التي اقتضته والزمان والمكان الذي حدثت فيه عملية التخاطب.

في مفهوم الخطاب:

الخطب: الشأن والأمر صغر أو عظم، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، ويقال: خاطبه مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان(٢)، والخُطبة ما يقوله الخطيب، وهي مثل الرسالة التي لها أول وآخر(٣)، ورجل خطيب حسن الخطبة(٤)، وفصل الخطاب: ما ينفصل به الأمر من الخطاب(٥).

ويرى ابن فارس أن «الخاء والطاء والباء أصلان، أحدهما: الكلامُ بين اثنين، يقال: خاطبهُ يُخاطِبه خِطاباً، والخُطْبة من ذلك. وفي النِّكاح: الطَّلَب

(١) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٦٢.
(٢) ينظر: لسان العرب (خطب): (٤/١٣٤ ـ ١٣٥)، والقاموس المحيط (خطب): (١/٦٢ ـ ٦٣).
(٣) ينظر: تَهذيب اللغة (خطب): (٧/٢٤٦)، ولسان العرب (خطب): (٤/١٣٥).
(٤) ينظر: القاموس المحيط (خطب): (١/٦٣).
(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (١/٣٠٣).



أن يـزوّج، قـال الله تـعـالـى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. والخُطْبة: الكلام المخطوب به. ويقال: اختطب القومُ فلاناً، إذا دعَوْه إلى تزوج صاحبتهم. والخطب: الأمرُ يقع؛ وإنما سُمِّي بذلك لِمَا يقع فيه من التَّخاطب والمراجعة»[(١)].

ونخلص من هذا إلى بعض ملامح الخطاب، وهي:

١ ـ الخطاب عملية تواصل بين متخاطبين.

٢ ـ الخطاب يأتي لمواجهة أمرٍ ما، أي: لتحقيق حاجة اجتماعية.

٣ ـ الخطاب عملية مقصودة، إذ يقوم المخاطِب فيها بمراجعة خطابه.

٤ ـ الخطاب ذو بداية ونهاية بمعنى أنه مغلق.

٥ ـ بما أن الخطاب يأتي تلبية لحاجة اجتماعية فإنه يقتضي التأثير في المخاطَبين، ولذلك فالخطيب هو حَسَنُ الخُطبة، أي: القادر على الجمع بين الإقناع والتأثير.

ومثل هذه المعاني نجدها في المعنى الاصطلاحي للخطاب، فالخطاب «توجيه الكلام نحو الغير للإفهام»[(٢)]، و«الخطاب هو القول الذي يفهم به المخاطَب شيئاً»[(٣)]، والمقصود به عند الأصوليين إفهام السامع[(٤)]، «وما لا يفهمه المخاطَب ليس بخطاب»[(٥)].

وقد حاول التهانوي أن يربط المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي، إذ قال: «الخطاب... بحسب أصل اللغة: توجيه الكلام نحو الغير للإفهام،

(١) مقاييس اللغة: (٢/١٦٠).
(٢) الحدود الأنيقة: ٦٨.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف: ٢١٦.
(٤) ينظر: أصول السرخسي: (٢/٢٩).
(٥) روضة الناظر: (١/٥٣).

ثم نقل إلى الكلام الموجَّه نحو الغير للإفهام، وقد يعبر عنه بما يقع به التخاطب»[1].

ولم يكن مصطلح الخطاب غريباً عن المفسرين ودارسي علوم القرآن، وممن أكثر من استعماله الباقلاني ومن العبارات التي ذكرها: «تنزيل متصرفات الخطاب»[2]، و«ما يقتضيه نظام الخطاب»[3]، و«وجوه الخطاب»[4]، و«أجناس الخطاب»[5]، وغير ذلك[6].

وقد خصَّص ابن فارس باباً للخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع، وفيه يقول: «وإنما المعوّل على ما يقع في كتاب الله - جلّ ثناؤه - من الخطاب أو في سنّة رسول الله ﷺ أو غيرهما من الكلام المشترك في اللفظ»[7].

وفي العصر الحديث عُني الباحثون بدراسة الخطاب وظهر ما يسمَّى نظريات تحليل الخطاب، والتلقِّي والقراءة والتأويل والتواصل، وقد انتهت هذه الدراسات إلى أفكار مهمة، غير أنّ كثيراً من هذه الأفكار أشار إليها علماؤنا القدامى، ولا سيما أولئك الذين اتصلت دراساتُهم بالقرآن الكريم. إذ انتقلوا من البحث في المفردة أو الجملة إلى البحث في الخطاب الذي يتمُّ فيه تحميل المفردات والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب[8].

(١) كشاف اصطلاحات الفنون: (١٧٥/٢).
(٢) إعجاز القرآن: ٦.
(٣) إعجاز القرآن: ١٣.
(٤) إعجاز القرآن: ٢٤، ٢٦، ٣٧.
(٥) إعجاز القرآن: ٣٠.
(٦) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٧، ٣٨، ٤٢، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ١٥٨، ١٩٨.
(٧) الصاحبي: ١٩٠.
(٨) ينظر: اللسانيات والدلالة: ٧.



ويجد الباحث المعاصر نفسه مُلزماً بالإفادة من مخرجات الدراسات اللسانية الحديثة، لكنه يجد أنّها تستند إلى فلسفات غربية غريبة عن ثقافتنا العربية والإسلامية، فيضطر لانتقاء أفضل ما فيها، ويحاول أن يؤسس منهجاً جذوره تضرب في الماضي أصالةً، وتتغذّى من الحاضر معاصرة مُبصِرة.

إن دراسة الخطاب القرآني في ضوء نظريات الخطاب الحديثة مسألة شائكة، ومغامرة لا تخلو من الزلات والهفوات، ونعتقد أنه من الخطأ أخذ هذه النظريات وإسقاطها على النص القرآني للأسباب الآتية:

١ ـ القرآن الكريم نصٌّ مقدَّس، وينبغي دراسته في ضوء هذه القداسة، وقد قامت الدراسات الغربية ولا سيما النظرية البنيوية ونظرية تحليل الخطاب على دراسة خطابات ونصوص لا قدسية لها، ومن ثم يتميز النص القرآني بخصوصية يجب مراعاتُها عند أيّة محاولة للتحليل أو التفسير أو التأويل.

٢ ـ تَهتم نظرية تحليل الخطاب بدراسة شخصية المخاطِب وتحليلها، ولَمّا كان المخاطِب في القرآن الكريم هو الله تعالى امتنع تطبيق مثل هذا التحليل إلا بشرط مراعاة هذا الإشكال.

٣ ـ يُعدُّ المخاطَب مشاركاً في إنتاج النص إن لم يكن هو المنتج الأساسي عند أصحاب نظرية الخطاب ونظرية التلقّي.

ومن هنا سيحاول البحث أن يفيد من نتاجات الدراسات الحديثة بالقدر الذي يتناسب مع النص القرآني، وبِما يضيء جوانب جديدة من وجوه الإعجاز القرآني، فالقرآن لا تنقضي عجائبه.

إن دراسة سياق الخطاب تقتضي تعرف سياق الخطاب، ويرى (هايمس) أن سياق الخطاب يتألف من عناصر أساسية، هي: المخاطِب، والمخاطب، والمشاركون، والمقام، أي: ظروف الخطاب كالزمان والمكان

وإشارات المخاطِب، وتعابير الوجه، والشفرة، وجنس الخطاب والحدث، والغرض[1].

ويرى (براون ويول) أنه يجب أن نعرف ـ في الأقل ـ من هو المتكلم ومن هو المستمع، وزمان الخطاب ومكانه[2]، وهذا هو المبدأ العام الذي يحدد أهمية السياق في فهم خطاب معيَّن وتأويله[3].

ويمكن القول: إنّ عملية التخاطب تتألف من عناصر أهمها المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب، وسيحاول البحث أن يبيِّن أثر العناية بكلٍّ منها في توجيه الدلالة، وتكتسب هذه العناصر مشروعيتها ـ في هذا الموضوع ـ من كونِها عناصر مهمة في المقام أو سياق الحال، وهذه العناصر ذات أثر كبير في تفسير القرآن الكريم، إذ توجّه المعنى بشكل مباشر أو غير مباشر، ويؤدي إهمال مراعاتِها إلى قصورٍ في فهم الخطاب القرآني.

أولاً: مكونات السياق التخاطبي القرآني:

(١) طرفا الخطاب القرآني:

إن الرؤية العامة لسياق الخطاب في القرآن الكريم، تقرِّر أن المخاطِب هو الله تعالى، لأن القرآن كلام الله، ويكون المخاطَب هو الرسول محمد ﷺ لأنه المتلقي الأول للقرآن الكريم، إذ أوحي إليه وأمِر بتبليغه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦]. فالمخاطِب هو الله تعالى الذي يتصف بالكمال والدوام، وخطابُه يستمد كماله منه سبحانه، ومن هنا كان القرآن الكريم معجزةَ الرسول ﷺ، ودليلاً على وجود الله وعظمته وكماله.

(١) See Discourse analysis: 38 - 39.

(٢) See Discourse analysis: 27.

(٣) ينظر: لسانيات النص: ٢٩٧.



وقد نظر المفسرون والأصوليون في دلالة الخطاب القرآني في ضوء خصوصيته التي تميِّزه من غيره، وبما يتناسب مع جلال المخاطِب في الخطاب القرآني، لذلك كان القرآن «بليغاً بحسب كمال المتكلم»(١).

وعلى الرغم من وضوح مقصود الخطاب القرآني وسهولة فهمه أشار العلماء إلى أنه لا يمكن لأحدٍ أن يدَّعي الإحاطة التامة بذلك، إذ «لو أُعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نِهاية ما أودعه الله في آيةٍ من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نِهاية، فكذلك لا نِهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق(٢)، ولا تبلغ إلى نِهاية فهمه فُهومٌ محدَثة مخلوقة»(٣)، ويعود السبب في ذلك إلى أن المتكلم في الخطاب القرآني غيبي لا يراه الناس فيصلون إلى مراده، ولا إمكان للسماع منه أو الوصول إليه، بخلاف الأمثال والأشعار التي يمكن فيها العلم بمراد المتكلم من خلال السماع منه أو مِمَّن سمع منه، أما القرآن فلا يُعلم مرادُ المتكلم فيه على وجه القطع إلا بأن يُسمع من رسول الله ﷺ، وذلك متعذِّر إلا في آيات قليلة فسّرها رسول الله ﷺ(٤).

وهذا يعني أن العلماء نظروا إلى المخاطِب والمتلقي (المستمع أو المفسر) في الخطاب القرآني «من مبدأ المطلق والنسبي والتام والناقص، والواسع والمحدود، والدائم والتاريخي»(٥).

ولمّا كان غرض الخطاب القرآني إبلاغياً لا يقتصر على الرسول ﷺ، وإنما يشمل جميع الناس اقتضى الأمر أن يتحوّل الرسول ﷺ (المتلقّي الأول

(١) البرهان في علوم القرآن: (٣١٢/١).
(٢) خلافاً للمعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن.
(٣) البرهان في علوم القرآن: (٩/١).
(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (١٦/١).
(٥) القرآن وعلم القراءة (مقدمة المترجم): ٢١.

للقرآن) إلى مخاطِب (مبلِّغ للخطاب)، فهو مكلّفٌ بالتبليغ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ويتجسد السياق التخاطبي في القرآن الكريم فيما يأتي:

١ ـ سياق التخاطب التنزيلي (الوحي): المخاطِب (الله ﷻ) ـ بواسطة جبريل ـ المخاطَب (محمد ﷺ).

٢ ـ سياق التخاطب التبليغي: المخاطِب: (محمد ﷺ) المخاطَب: الناس (أمة محمد ﷺ).

والخطاب القرآني خطابٌ توجيهيٌّ تشريعيٌّ تغييريٌّ لا تقتصر وظيفته على الإبلاغ والتأثير، وإنما يتحول إلى منهج يسيِّر كلَّ شؤون الحياة، ومن ثم يقتضي هذا الخطاب المخاطَبَ، ويجعل له حضوراً متميزاً في داخله، وبمعنى آخر يصبح المخاطَبُ جزءاً من دلالة الخطاب، لأن الخطاب موجَّهٌ إليه، ويجب عليه أن يتمثَّله منهجَ حياةٍ شاملةٍ عقيدةً وعبادةً ومعاملةً.

ويبدو أن علماءنا تنبهوا إلى تداولية الخطاب القرآني، إذ ظهر لهم أن الإنسان يتأسس في ضوء القرآن شرعاً وقانوناً، ليكون في وجوده صورة لوجود الشريعة، ويكون خطابُه خطاباً لها، وحينئذٍ يتخلّق الخطاب القرآني في الإنسان، عقيدة وعبادة، سياسةً واقتصاداً، سلوكاً واجتماعاً، أخلاقاً وتعاملاً، أي: إنَّ المخاطَب يتأسَّس في ضوء القرآن بنيةً، ويقيم علاقاتٍ مع محيطه تعدُّ في حدوثها من نتاج النص. ويعدُّ المتلقي في ضوء هذه الرؤية شرط النص في بلوغه تمامه دلالة، وشرط النص في حصوله أداءً، كما أنَّ النص يُعدُّ من هذا المنظور أيضاً شرطَ الكائن في بلوغه تمامه كينونةً، وشرط الكائن في حصوله تعيُّناً[١].

والخطاب القرآني يحيل على المخاطِب كما يحيل على المخاطَب،

(١) ينظر: القرآن وعلم القراءة (مقدمة المترجم): ١٩ ـ ٢٠.



ويأخذ المخاطَبُ فيه موقعَ الهدف، كما أن القرآن هو مضمون الخطاب ووسيلته، فهو يهدي المخاطَب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]، والمخاطَب لا يستطيع الهداية إلا بتدبُّر آيات القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ومن هنا يجب استحضار حال المخاطَب للتمكُّن من فهم الخطاب واستكناه دلالاته المختلفة، وقد كان سلوك الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله أهم روافد تفسير القرآن الكريم، لأنه بلغ الغاية في تمثُّل القرآن تلاوةً وسلوكاً وتشريعاً، ولذلك حين سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ قالت: «كانَ خُلُقه القُرْآن»(١). وتمثُّلُ القرآن الكريم مطلوبٌ من كل مسلم.

وإذا كان الخطاب القرآني يُعدُّ دليلاً على قائله سبحانه وتعالى في كماله وتمامه فإنه يكون كاملاً معجزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكنه حين ينتقل إلى المخاطَب فيقوم بتفسيره أو تأويله يصبح التفسير مثالاً على متلقيه، بمعنى أن ما يفهمه المخاطَب من الخطاب القرآني يظل قاصراً عن بلوغ الكمال في فهم دلالات الخطاب وقصد المتكلم (المخاطِب).

ومن ثم يتفاوت المخاطبون في فهم دلالات الخطاب القرآني، ويمكن تقسيم الدلالة تبعاً لذلك على دلالة حقيقية وإضافية، فالدلالة الحقيقية «تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها،

(١) مسند الإمام أحمد: (٦/٢١٦)، رقم (٢٥٨٥٥)، والأدب المفرد: (١/١١٥)، رقم (٣٠٨)، وشعب الإيمان: (٢/١٥٤)، رقم (١٤٢٨).

وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك»[1].

وهذا يعني أن خطاب التفسير إنما يعبِّر عن فهم المتلقي، وقد يخالف قصد المتكلم، لأن التفسير ناتج ثقافي قائم على الممكن والنسبي، وحاصل في الأفهام على مقدار اختلافها وتفاوتِها، ثم إن التفسير يقوم شاهداً على وجود مسافة لغوية بين خطابين: الخطاب القرآني وخطاب التفسير نفسه، وبِهذا يصبح خطاب القرآن لغةً باعثةً على تغيير خطاب التفسير وتجديده، كما يصبح التفسير خطاباً متغيِّراً إزاء الخطاب القرآني على قدر فهم المفسر وطبيعة العصر، وتأسيساً على هذا يكون المعنى متجاوزاً عند المخاطِب وثابتاً بالشرط الزمني والإنساني عند المخاطَب[2].

إن وظيفة متلقي النص القرآني تتحدَّد في محاولة اكتشاف قصد المخاطِب من خلال دلالات النص وسياقه، وقد أشار ابن القيم إلى أن «دلالة السياق... من أعظم القرائن الدالَّة على مراد المتكلم»[3].

(٢) عناصر الخطاب القرآني:

إذا نظرنا نظرة تفصيلية في مكونات الخطاب التي تضمنها النص القرآني، فإننا نجد القرآن يعرض كثيراً من عمليات التخاطُب التي يختلف فيها المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب، وتُعدُّ الإحاطة بِها من مقومات سياق الحال، ومن عوامل اكتشاف دلالات النص القرآني.

ويبدو لي أنّ تحليل الخطاب على هذا النحو يعدُّ أنسب لسياق القرآن وطبيعته، ولعلمائنا القدامى ملاحظات مهمة في هذا المجال، فهذا الطبري يشير في مقدمة تفسيره إلى أن سياق الخطاب يقتضي الإفهام، أي: قيام المخاطِب بمراعاة حال المخاطَب وفهمه، ويقتضي جلالُ الله وعظمته أن لا

(١) إعلام الموقِّعين عن رب العالمين: (١/٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٢) ينظر: القرآن وعلم القراءة (مقدمة المترجم): ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) بدائع الفوائد: (٤/٨١٥)، وينظر: البرهان في علوم القرآن: (٢/٢٠٠).



«يُخاطِب جلَّ ذكرُه أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَب، ولا يرسل إلى أحدٍ منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسَل إليه... لأن المخاطَب والمرسَل إليه إن لم يفهم ما خوطب به، وأُرسل به إليه فحاله ـ قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة وبعده ـ سواء، إذْ لم يفدْه الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً، والله جلَّ ذكره يتعالى أن يخاطِب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطِب أو أرسلتْ إليه، لأن ذلك فيه من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعالٍ»(1).

إن الطبري في هذا النص يضع يده على عناصر سياق الخطاب، وهي: المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب أو الرسالة اللغوية، وهذا يدلُّ على وعيه بالوظيفة التداولية للخطاب، فالرسالة اللغوية تصدر من مخاطِب يراعي حال المخاطَب، ويسعى إلى إفهامه وتزويده بفائدة لا يعلمها.

ومن جهة أخرى عُني البلاغيون بمفهوم المقام ويقصدون به ما يحيط بالنص من ملابسات تتعلق بالمتكلم والمخاطَب وموضوع الخطاب، ولذلك قالوا: «لكل مقام مقال»(2)، و«مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكُّر يباين مقام الشِّكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدِّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار. جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكلٍّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»(3).

وهذا يعني أن موضوع الخطاب يحدد طبيعة المقال، ويرتبط بطبيعة

(1) جامع البيان: (1/11).

(2) البيان والتبيين: (1/136)، وأدب الكاتب: 19، والبرهان في وجوه البيان: 194، ومختصر المعاني: 12.

(3) مفتاح العلوم: 256، والإيضاح في علوم البلاغة: 80.

المخاطِب وظروفه ومكانته من جهة، كما يرتبط من جهة أخرى بطبيعة المخاطِب ومكانته، فقد يكون المخاطِب في مستوى المخاطَب أو أعلى منه أو أدنى منه مكانةً، فضلاً عن اختلاف مقامات المخاطبين من حيث مستوى الفهم، وهذا كله يسهم في إنتاج الخطاب، وتوجيه دلالته.

ومن هنا كانت بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال[١]، إذ يختلف «النظم... عند اختلاف المقام، فلا بدّ لحسن الكلام من انطباقٍ له على ما لأجله يُساق»[٢].

ويبدو تحليل سياق التخاطب في القرآن الكريم أكثر أهمية وأشد إلحاحاً، وذلك لكثرة الحوار، واختلاف طرفي عملية التخاطب، وسيحاول البحث أن يدرس عناصر التخاطب في القرآن الكريم من خلال بعض الأمثلة.

أ ـ المخاطِب:

يعدُّ المخاطِب عنصراً مهماً في سياق التخاطب، فهو الذي يوجِّه مقصد الخطاب بما يناسب المقام، لذلك يختلف الخطاب تبعاً لاختلاف المخاطِب، ويظهر «فضل بعضِ القائلين على بعضٍ من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبِهم»[٣].

واللغة ليست إلا وسيلة يتوسل بِها المتكلم للتعبير عن مراده، وعلى المخاطَب أن يجتهد في معرفة مراد المتكلِّم، لأن «الألفاظ لم تقصد لذواتِها، وإنما هي أدلة يستدلُّ بِها على مراد المتكلِّم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريقٍ كان عمل بمقتضاه، سواءً كان بإشارة، أو بكتابة، أو

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٠، ومختصر المعاني: ١١، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: (١/٤٠٥).

(٢) مفتاح العلوم: ٤٣١.

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٣.



بإيماءة، أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مطَّردة لا يخلُّ بِها، أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته»[1].

ومن المسلَّم به أن المخاطِب في القرآن كله هو الله تعالى، لكنه قد يأتي بالخطاب على لسان أحد الأنبياء أو الأقوام أو إحدى شخصيات القصص القرآني، أو أهل الجنة أو أهل النار، أو غير ذلك، وتختلف دلالة النص تبعاً لاختلاف المخاطِب، وقد كان المفسرون يراعون حال المخاطِب لأنه أحد عناصر المقام، والأمثلة على هذا كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، ومنها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤] ظاهر الآية قد يوحي بأن المخاطِب يشكُّ في احتمال تذكُّر فرعون، لكنّ السياق يدل على أن المخاطِب هو الله تعالى، وهو يعلم ما سيفضي إليه حال فرعون، ولذلك حاول المفسرون توجيه الآية بما يتناسب مع جلال المخاطِب، وقالوا: إنه «ليس المراد أنه تعالى كان شاكًّا في ذلك، لأن ذلك محالٌ عليه تعالى»[2]، فمنهم من قال: إن معنى (لعلَّه) الاستفهام، ويكون تقدير الكلام: فقولا له قولاً ليناً فانظرا هل يتذكر فيرجع أو يخشى فيرتدع عن طغيانه، ومنهم من قال: إن معنى (لعل) ـ هنا ـ التعليل، وتوجيه الكلام عندهم: اذهبا إلى فرعون إنه طغى فعظاه ليتذكر أو يخشى[3]، ومنهم من قال: إن المعنى: قولا له قولاً ليّناً راجين أن يتذكر أو يخشى[4]، وقال الزجّاج (ت٣١١هـ): «المعنى... اذهبا على رجائكما وطمعكما... وقد علم الله ﷻ أنه لا يتذكّر ولا يخشى، إلا أن الحجة إنما تجب عليه بالإبانة، وإقامتها عليه، والبرهان. وإنما تُبعث الرسل وهي لا تعلم الغيب

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (٢١٨/١).
(٢) التفسير الكبير: (٥٣/٨).
(٣) ينظر: جامع البيان: (١٦٩/١٦).
(٤) ينظر: التفسير الكبير: (٥٣/٨)، وإرشاد العقل السليم: (١٨/٦).

ولا تدري أيقبل منها أم لا، وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم، ومعنى (لعل) متصوّر في أنفسهم، وعلى تصوُّر ذلك تقوم الحجة، وليس علم الله بما سيكون تجب به الحجة على الآدميين، ولو كان كذلك لم يكن في الرسل فائدة، فمعنى ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هو الذي عليه بُعث جميع الرسل»[1]، والغرض من هذه التوجيهات هو تنزيه الله تعالى (المخاطِب) عن الشك.

وقد جاءت (لعل) على معناها المعروف وهو الترجُي في قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، والنحاة يفرّقون بين التمني والترجي، فالتمني يكون في الممكن والممتنع، والترجي يكون في الممكن[2]، ولأن بلوغ السماوات ليس أمراً ممكناً احتملت الآية توجيهين يرجعان إلى طبيعة المخاطِب (فرعون)، أحدهما: أنه جاهل اعتقد في المستحيل الإمكان لأنه يعتقد في الإله الجسمية والمكان[3]، وثانيهما: أنه «أبرز ما لا يمكن في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه»[4].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فالاستفهام إنكاري والجملة في محلِّ نصبٍ على الحال، وهي مؤكِّدة للإنكار، فكون المخاطِب (إبراهيم عليه السلام) مَهدياً من الله تعالى ومؤيَّداً من عنده مما يوجب استحالة محاجّته عليه السلام[5].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٣/٣٥٧ ـ ٣٥٨).

(٢) ينظر: شرح كافية ابن الحاجب: (٤/٣٤٨)، وشرح المفصّل: (٨/٨٦)، والجنى الداني: ٤٥٨.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (٤/١٥٩).

(٤) البحر المحيط: (٧/٤٤٦).

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٣/١٥٣).



وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال يونس عليه السلام هذا الكلام وهو في بطن الحوت، وقد أحسَّ ذنبه وتاب من خطيئة، وجاء التوكيد بـ (إنّي) تعبيراً عن حاله.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، إذ تنقل أم مريم إحساسها بالحزن والحسرة، ولا يمكن فهم الآية إلا بتصوّر حالها، فهي لا تريد أن تخبر الله أنها وضعتْ أنثى، لأن الله يعلم ذلك من قبل الوضع، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ولذلك جاء التوكيد (إني) ليعبِّر عما يختلج في نفسها ويصور حالها.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، إذ يجوز أن يقال: أحسَنَ بي وأحسَنَ إلي، وهي مختلفة المعاني، لكن قوله: (بي) أليق بحال يوسف، لأنه إحسانٌ درج فيه دون أن يقصد الغاية التي صار إليها(١).

ولأهمية معرفة المخاطِب في السياق القرآني حرص المفسرون على إرجاع كل خطاب إلى مخاطِب معين، فإذا خفي استدلوا عليه بالسياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]، فالمراد بالملائكة ـ هنا ـ جبريل وحده، ويؤكد هذا النظر في سورة مريم، إذ يدل سياقها على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام(٢)، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

ب ـ المخاطَب:

إن «القرآن كلّه قام على رعاية حال المخاطبين، فتارةً يشتد وتارةً

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (١٧٦/٤).

(٢) ينظر: التفسير الكبير: (٢١٧/٣).

يلين، تبعاً لما يقتضيه حالهم، سواء منهم مكيّهم ومدنيّهم بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعدٌ ووعيد وتسامح وتشديد وأخذ وردٌ وجذب وشدٌّ»(١).

ولما كان الخطاب القرآني قائماً على الحوار كان للمخاطَب حضورٌ فاعلٌ كما كان للمخاطِب، وقد عُني المفسرون بتحديد المخاطَب وبيان طبيعته وأثر ذلك في دلالة النص القرآني، إذ يبدؤون في أغلب الأحيان بتحديد المخاطَب، ثم يفسرون الآيات مع مراعاة حركة النص تبعاً لطبيعة المخاطَبين، ثم يذكرون أثر الخطاب وفاعليته في المخاطَبين ويبيِّنون ردود أفعالهم ومصيرهم.

وهذا يعني أن استحضار حال المخاطَب يضيء دلالة النص ويكشف المقصود منه، لكن المخاطَب قد يكون غير ظاهر، فتختلف الآراء فيه، فيلجأ المفسرون إلى السياق لتحديده. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠]، تحدّث الطبري عن المخاطَب في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقال: «اختُلِف فيمن عُنوا بِهذا الخطاب، فقال بعضهم: عُني به أمة محمد ﷺ... وقال آخرون: عُني به قوم موسى ﷺ... وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين في سياق قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومعطوفٌ عليه، ولا دلالة في الكلام تدل على أن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مصروفٌ عن خطاب الذين ابتُدئ بخطابِهم في أول الآية، فإذ كان ذلك كذلك فأَنْ يكون خطاباً لهم أولى من أن يقال: هو مصروف عنهم إلى غيرهم، فإن ظنَّ ظانٌّ أن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لا يجوز أن يكون خطاباً

---

(١) مناهل العرفان: (١٤٩/١).



لبني إسرائيل، إذ كانت أمة محمد قد أوتيت من كرامة الله جلّ وعزّ بنبيها ﷺ محمدٍ ما لم يؤتَ أحدٌ من غيرهم، وهم من العالمين، فقد ظَنَّ غير الصواب، وذلك أن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خطابٌ من موسى عليه السلام لقومه يومئذ، وعنى بذلك عالمي زمانه لا عالمي كل زمان، ولم يكن أوتي في ذلك الزمان من نعم الله وكرامته ما أوتي قومه ﷺ أحدٌ من العالمين، فخرج الكلام منه ﷺ على ذلك، لا على جميع عالمِ كل زمان»(١).

إن هذا النص يدل دلالة واضحة على إدراك المفسِّر أهميةَ السياق التخاطبي في تحليل النص القرآني، ويمكن أن يُستخلص منه ما يأتي:

١ ـ قام التحليل النصي للآية على مراعاة عناصر الخطاب: (المخاطِب، المخاطَب، موضوع الخطاب)، فالمخاطِب هو موسى عليه السلام، والمخاطَب إما قوم موسى عليه السلام وإما قوم محمد ﷺ، وموضوع الخطاب هو الامتنان على بني إسرائيل بنعم الله العظيمة.

٢ ـ طبيعة المخاطبين كانت سبباً في اختلاف المفسرين في دلالة الآية، والسياق هو المرجع الذي احتكم إليه الفريقان، إذ استند الذين قالوا: إن المخاطبين بالآية السابقة هم أمة محمد ﷺ إلى السياق الثقافي والعاطفي، لأن أمة محمد ﷺ خير الأمم، لكنهم تجاهلوا الدلالات السياقية الأخرى، وهذا «خلاف الظاهر.... لأن الخطابات السابقة واللاحقة لبني إسرائيل، فوجود خطاب في الأثناء لغيرهم مما يخل بالنظم الكريم»(٢).

٣ ـ ينبغي مراعاة حال المخاطَب في ضوء دلالات السياق التخاطبي، وقد استند الذين قالوا: إن المخاطبين هم بنو إسرائيل إلى الدلالات السياقية الآتية:

---

(١) جامع البيان: (١٠/١٦٤ ـ ١٦٦).

(٢) روح المعاني: (٦/١٠٦).

أ ـ سياق الآيات في خطاب بني إسرائيل، والآية بدئت بخطاب بني إسرائيل ولا توجد دلائل تصرف هذا الخطاب.

ب ـ المخاطِب في هذه الآية هو موسى عليه السلام، وخطابُه متجّهٌ حتماً إلى بني إسرائيل.

جـ ـ لفظ ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ليس عاماً، وإنما هو مخصَّصٌ بزمن الخطاب، فلا تدخل أمة محمد في ذلك، وزمن الخطاب من عناصر السياق الحالي التي يجب مراعاتـها في تحليل الخطاب وتفسيره.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١١]، اختُلف في المخاطَب في قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ على قولين، الأول: أنه من كلام فرعون وجاء جواباً لقول الملأ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، واحتجّ من قال بِهذا بحجتين، الأولى: أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطابٌ للجمع لا للواحد، فيجب أن يكون من كلام فرعون للقوم، والثانية: أنه أجيب عن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، ولا شك في أن هذا من كلام القوم، وهذا يدل على أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من بقية كلام القوم، واستدلّ القائلون بِهذا بوجهين، الأول: أنه منسوقٌ على كلام القوم من غير فاصل، والثاني: اعتبار الرتبة في الأمر، فينبغي أن يكون ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطاباً من الأدنى مع الأعلى، أي: من كلام الملأ مع فرعون[1]. ويؤيد القول الأول قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]، فالمخاطِب هو فرعون.

والذي يهمنا هو أن نشير إلى أنّ تفسير الآيات اعتمد على تعرف مكونات الخطاب في هذا الحوار القصصي في ضوء قرائن السياق اللغوي

(١) ينظر: التفسير الكبير: (٣٣١/٥).



والحالي، وأن المفسر يراعي مكانة المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب في تفسير النصّ وتحليله.

والمخاطِب يراعي حال المخاطَب فيقدِّم أو يؤخِّر تبعاً لعلم المخاطَب وحاله، ومن ذلك تقديم قصة الأمر بذبح البقرة على قصة القتيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٣]، إذ «كان الاختلاف في القاتل قبل ذبح البقرة، وإنما أُخِّر في الكلام، لأنه سبحانه لما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الآية، علم المخاطبون أن البقرة لا تُذبح إلا للدلالة على قاتلٍ خفيتْ عينُه عليهم، فلما استقرَّ علمُ هذا في نفوسهم أتبع بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾ على جهة التوكيد، لا أنه عرفهم الاختلاف في القاتل بعد أن دلَّهم على ذبح البقرة»(١). وهذا يعني أن ترتيب الخطاب جاء موافقاً لمقتضيات فهم المخاطبين (قوم موسى) ومتطلبات إصلاحهم وتوجيههم.

لكنَّ القصة تأخذ بعداً آخر إذا نظرنا إليها في زمن نزول النص القرآني، إذ يكون المتلقِّي الأول للنص القرآني محمدٌ ﷺ هو المخاطِب،

---

(١) البرهان في علوم القرآن: (٢٧٦/٣)، وينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (١١٢/١)، والإتقان في علوم القرآن: (٣٤/٣).

ويكون المخاطَبون هم اليهود المعاصرون للرسول ﷺ، وإسناد القتل والتدارؤ إليهم من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخاً وتقريعاً لهم، وقد أفاد تغييرُ ترتيب الخطاب عند الحكاية تكريرَ التوبيخ والتقريع، فإن كلّ واحدٍ من قتل النفس المحرَّمة، ثم الاستهزاء بموسى عليه السلام، وعدم المسارعة إلى الامتثال بأمره جنايةٌ عظيمةٌ حقيقةٌ بأن يوبَّخوا عليها. وقد دلّ على تغيير الترتيب مناسبة القصة، والضمير العائد على البقرة (ببعضها)، كأنه قيل: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا: اذبحوا البقرة فاضربوه ببعضها[1].

وقد فسّر الزمخشري هذه الآيات في ضوء حال المخاطبين وتوسّل بالمناسبة بين قصة البقرة وقصة القتيل، وبينهما وبين قصص بني إسرائيل في القرآن، إذ قال في تعليل اختلاف الترتيب بين القصتين: «كل ما قُصَّ من قصص بني إسرائيل إنما قُصّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها... وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متّحدتين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة؛ وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد... وصِلت بالأولى دلالةً على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى تبيّن أنّهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وتثنيته بإخراج الثانية مخرجَ الاستئناف مع تأخيرها، وأنّها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة»[2].

وهذا يعني أنّ غرض الخطاب تحكّم في الترتيب وجعل القصة قصتين، لتثنية التقريع، أي: إن مقصد المخاطِب قلْب الترتيب مما أدى إلى

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (١/١١٣ ـ ١١٤).
(٢) الكشاف: (١/٢٩٠).

إشعار المخاطَب بالذنب العظيم الذي ارتكبه(١).

وقد يترتب على تحديد المخاطَب تعميمُ الخطاب أو تخصيصه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]، إذ اختُلف في تحديد المخاطَب في ثلاثة مواضع من هذه الآية:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، إذ يدلُّ سياق الآيات على أنه من جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، ويكون التقدير لا تعبدوا إلا الله، وأن تقولوا للناس حسناً، فالمخاطَبون هم بنو إسرائيل، وقيل: إن المخاطَب أمةُ محمد ﷺ، والرأي الأول أقرب لاتساقه مع ما قبله وما بعده من حيث المعنى، فهو من مكارم الأخلاق، ولمناسبته للخطاب بعد ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، وكون المخاطبين هم بنو إسرائيل دليلٌ على أن هذه الأمور كانت واجبة عليهم، والله يذمهم على تركها. وذهب بعض الذين قالوا: إن المخاطب في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، هذه الأمة إلى أن عموم الآية مخصَّص بالمؤمنين أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيكون تخصيصاً بحسب المخاطَب أو موضوع الخطاب، والأولى أنه لا حاجة إلى التخصيص، لأن القول الحسَن يخاطَب به جميع الناس، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى وهارون عليهما السلام بالرفق مع فرعون(٢).

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، قيل: إنه خطاب للمؤمنين من هذه الأمة وهو من تلوين الخطاب، وقيل: إن المخاطبين هم بنو إسرائيل، وهذا القول هو الأوْلى لأنه يتفق مع سياق الآية. والصلاة المذكورة هي التي أمروا بها في التوارة(٣).

---

(١) ينظر: لسانيات النص: ١٨٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط: (١/٤٥٤).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (١/٤٥٤ ـ ٤٥٥).

الثالث: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، اختلفوا في المخاطَب هنا على ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه من تقدَّم من بني إسرائيل، والدليل عليه أن سياق الآية فيهم ولا يُصرف عنهم في آخر الآية إلا بدليل، ويؤكِّد هذا أن الله تعالى ساق الكلام الأول سياقة إظهار النعم بإقامة الحجج عليهم، ثم بيّن أنّهم تولوا إلا قليلاً منهم.

وثانيها: أنه خطاب لمن كان في عصر النبي ﷺ من اليهود، ويكون المعنى: أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم، والدليل عليه أن قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ خطاب مشافهة وهو بالحاضرين أليق، والكلام السابق حكاية وهو بسلفهم الغائبين أليق، فكأنَّ الله تعالى قال: إن تلك العهود والمواثيق كما لزمهم التمسك بِها فذلك لازم لكم لأنكم تعلمون ما في التوراة من صدق نبوَّة محمد ﷺ، ومع ذلك توليتم وأعرضتم عن ذلك إلا قليلاً منكم.

وثالثها: أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ مَن تقدَّم من بني إسرائيل، وبقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ مَن تأخر من اليهود، إذ بيّن لهم أنه أنعم عليهم بتلك النعم فتولوا عنها، ثم خاطب المعاصرين لمحمد ﷺ بأنّهم بمنزلة السابقين لإعراضهم عن الدين الإسلامي[1].

ومن هنا يتبين للباحث أن تحديد المخاطَب ومعرفة حاله من العوامل المهمة في توجيه المعنى وتخصيص الدلالة أو تعميمها، وقد يؤدي إلى تغيير الحكم الشرعي.

ويُراعى حال المخاطَب من حيث علمُه بالخبر أو عدمُ علمه به، ومن حيث إقرارُه بمضمون الخبر أو درجة إنكاره أو تردُّده في تصديقه، ومن ثم

(١) ينظر: التفسير الكبير: (١/٥٩٠).



يختلف توكيد الخطاب تبعاً لاختلاف حال المخاطَب، إذ يؤكَّد بمؤكِّد واحد إذا كان إنكار المخاطَب ضعيفاً، ويزداد التوكيد على وفق زيادة مستوى الإنكار، والقرآن الكريم يتضمن أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة التي تقتضيها طبيعة الحوار والجدال بين الأنبياء وأقوامهم، وخير مثال على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس: ١٣ ـ ١٦]، قال الزمخشري: «فإن قلت: لِمَ قيل: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أولاً، و﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ آخراً، قلتُ: لأن الأول: ابتداء إخبار، والثاني: جوابٌ عن إنكار»(١)، أي: إن التوكيد مرتبط بحال المخاطَب.

ويدلُّ سياق الآيات على أن المخاطبين ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ كانوا منكرين الرسالة بدليل قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، فجاء الخطاب موافقاً لحال المخاطَب فأكّد بـ(إنَّا)، وجاءت الجملة اسميةً للدلالة على الثبوت والاستمرار وإيحاءً بأن رسالتهم امتداد للرسالات السابقة، لكنَّ هذا التأكيد قوبل بإنكارٍ أكثر وتكذيبٍ أعظم، إذ ردَّ المخاطبون (أصحاب القرية)، بقولهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: لستم رسلاً، وقد أكدوا إنكارهم بالنفي والاستثناء، ثم أكدوا تكذيبهم بقولهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ فهم ينكرون أن يكون الله قد أنزل شيئاً عليهم وعلى غيرهم، ثم أردفوا الإنكار بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، إذ وسموا رسلَ الله بالكذب وأكّدوا كلامهم بالنفي والاستثناء.

ولما كان إنكار المخاطبين قد وصل إلى هذا الحد من الشدة والمجابَهة، جاء خطاب الرسل أكثرَ تأكيداً، قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، وهذا الخطاب يتضمن المؤكدات الآتية:

(١) الكشاف: (٣١٨/٣).

أولاً: التكرار، وفيه ضرب من التوكيد.

ثانياً: جاءت الجملة اسمية.

ثالثاً: إن.

رابعاً: اللام في خبر إن.

خامساً: صُدِّرت الجملة بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾.

وهذا يعني أن عناصر توكيد الخطاب تتكاثر وفقاً لتصاعد أحوال الإنكار عند المخاطَب(١).

ج ـ موضوعُ الخطاب وغرضُه:

سبقت الإشارة إلى أن سياق التخاطب يتألف من المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب. وقد عني علماؤنا ولا سيما دارسي القرآن الكريم بتحديد موضوع الخطاب وغرضه، وهذا يدل على إدراكهم أهمية ذلك في كشف الدلالات وتوجيهها.

ويجب النظر إلى القرآن الكريم بوصفه كلاً متماسكاً، يعالج موضوعاً كلياً واحداً، ويرمي إلى غرضٍ واحدٍ هو تحقيق الغاية من الاستخلاف على الأرض، ويلاحظ الدارس أن «كلَّ سورة من سور القرآن ذات شخصية متفرِّدة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معيَّن، وذات مجال متخصِّص في علاج هذا الموضوع الواحد وهذه القضية الكبيرة، إنّها تجتمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتِها المستقلة، وطرائقها المتميزة، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية»(٢).

(١) ينظر: خصائص التراكيب: ٤٩.

(٢) في ظلال القرآن: (٣/١٢٤٣).



ويتصل غرض الخطاب بقصد المخاطِب وموضوع الخطاب، «وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جُعِل سياقُه له، وتوجُّهه إليه كأنّ ما سواه مرفوضٌ مطَّرَح»[1].

ويؤثر موضوع الخطاب في تلوين الخطاب وتوجيه مرجعيات الضمائر، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠]، ففي هذه الآيات مسألتان تتعلقان بموضوع الخطاب، أما الأولى: فهي زيادة (هو) قبل الإطعام والشفاء، وعدم الزيادة قبل الخلق، لأن الخلق لا يدَّعيه أحد فلا يحتاج إلى تأكيد، على خلاف الإطعام والشفاء فهما مما يدَّعي الإنسان أن يفعله، فأُكِّد إعلاماً أن ذلك منه سبحانه لا من غيره[2]، وأما الثانية فهي: أن إبراهيم عليه السلام نسب الخلق والهداية والإطعام والسقي والشفاء إلى الله عز وجل، ونسب المرض إلى نفسه (مرضت) ولم يقل: (أمرضني)[3] تأدُّباً مع الله تعالى، لأن المرض معنى نقصٍ وليس من جنس المعاني السابقة[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٧٩ ـ ٨٢]، فالعبد الصالح لما أراد ذكر عيب السفينة نسبه لنفسه تأدُّباً مع الله تعالى، ولما كان موضوع الخطاب هو قتل الغلام، وهو مشترك الحكم بين

---

(١) الكشاف: (٣/٣١٨).

(٢) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١٥٥.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (٤/٥٩).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: (٤/٢٣٤ ـ ٢٣٥)، والبرهان في علوم القرآن: (٤/٦٠).

المحمود والمذموم قال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ليكون الجانب المحمود من قتل الغلام وهو راحة أبويه المؤمنَين من كفره منسوباً إلى الله سبحانه وتعالى، ويكون المذموم ظاهراً وهو قتل نفس بغير حق منسوباً إليه. ولما كان موضوع الخطاب إقامة الجدار، وهو خير محضٌ نسبه إلى الله تعالى، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾[(1)]، وهذا يعني أن موضوع الخطاب يؤثر في تلوين الخطاب، فقد تغيَّر مرجع الضمير تبعاً لتغيُّر موضوع الخطاب وغرضه.

ويسهم تحديد موضوع الخطاب وسياقه في تحديد المعاني المشكِلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزَّةً... ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً وهم الملائكة... الذين حول العرش... فإن قلت: من أين دلَّ قوله ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عَلى أن المعنى ولا مَن فوقه؟ قلت: من حيث... إن الكلام إنما سيق لردِّ مذهب النصارى وغلوِّهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يرتفع عيسى عن العبودية ولا مَن هو أرفع منه درجة، كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية، فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع درجة وأعلاهم منزلة»[(2)]، فالزمخشري استند إلى موضوع الخطاب وهو ما سيق له الكلام في توجيه المعنى، فضلاً عن توظيف السياق اللغوي وهو تأخير ذكر الملائكة ووصفهم بأنَّهم مقرَّبون.

وقد يقتضي الوصول إلى غرض الخطاب متلقياً لديه قدرات عالية من العلم والذكاء والفطنة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (٤/٦٠).

(٢) الكشاف: (١/٥٨٥ ـ ٥٨٦)، وقد اختلف العلماء في أفضلية الملائكة أو الأنبياء، ينظر تفصيل ذلك في: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: (١/٥٨٥ ـ ٥٨٨).



هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنبياء: ٦٣]، قال الزمخشري: «هذا من معاريض الكلام، ولطائفُ هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصَد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم»(١).

ويخلص البحث مما سبق إلى الملاحظ الآتية:

١ ـ إن سياق التخاطب محكوم بثلاثة عناصر متشابكة ومتآلفة، هي: المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب وغرضه، وهي من عناصر سياق الحال.

٢ ـ إن المخاطِب حين يصوغ خطاباً ما يكون محكوماً بموضوع الخطاب وغرضه وحال المخاطَب، ويعدُّ هذا من شروط نجاح عملية التخاطب.

٣ ـ إن من أهم شروط القراءة الصحيحة للنص مراعاة حال المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب فضلاً عن السياق اللغوي.

٤ ـ كان المفسرون مدركين أهمية مراعاة سياق التخاطب في تفسير القرآن الكريم.

ثانياً: ملابسات السياق التخاطبي القرآني:

سبقت الإشارة إلى أن الخطاب يتأثر بسياق الحال، وخلص البحث إلى أنه ينبغي مراعاة أركان سياق التخاطب: (المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب)، وسيتناول البحثُ ـ هنا ـ الشقَّ الآخر من السياق التخاطبي، وهو ملابسات الخطاب لبيان أثرها في دلالة النص في القرآن الكريم.

---

(١) الكشاف: (٥٧٧/٢).

وأهم ملابسات الخطاب هي: الزمان والمكان وأسباب النزول، وقد عُني البلاغيون بزمان الخطاب ومكانه من خلال اهتمامهم بسياق الحال أو المقام، وفكرتا الحال والمقام - في مفهوم البلاغيين - مرتبطتان بالبعد الزماني والمكاني للخطاب، لأن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين، إما أن يتصل بزمن هذه الصياغة فيسمَّى (الحال)، وإما أن يتصل بمكانِها أو محلها فيسمَّى (المقام)، فكل خطاب لا بدَّ له من بُعدٍ زماني وبُعدٍ مكاني يقع فيه، ومن هنا ارتبطت فكرتا الحال والمقام بالخطاب، واختلاف الحال والمقام يؤدي إلى اختلاف صور الخطاب[1].

ويحتاج محلِّل الخطاب أو المفسِّر إلى معرفة «موضوع الخطاب، وفي أيِّ جو قيل وأيِّ مكان وأيِّ زمان، وكيف يقال؟ وما الداعي لقوله؟ وغير ذلك من العناصر الكثيرة جداً التي يؤثر كلٌّ منها تأثيراً مباشراً على كيفية قول الكلام وعلى تركيبه، وعلى معانيه، وعلى الغرض من قوله»[2].

وقد أشار الشاطبي إلى ضرورة الإحاطة بكل ملابسات الخطاب، فهو يرى «أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان... فلا محيص للمتفهِّم من رد آخر الكلام على أوَّله، وأوَّله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلَّف، فإن فرَّق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده. فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس المتكلم، فعمَّا قريب يبدو له منه المعنى المراد، فعليه التعبُّد به، وقد يعينه على هذا

(١) ينظر: البلاغة والأسلوبية: ٢٢٩.

(٢) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ١٢٣.

القصد النظر في أسباب التنزيل، فإنّها تبيِّن كثيراً من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر»[1].

ويمكن أن تُستخلَص من هذا النص الملاحظَ الآتية:

١ ـ يتشكَّل الخطاب ويتلوَّن تبعاً للسياق التخاطبي، أي: حال المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب والزمان والأحداث المحيطة به.

٢ ـ أسباب التنزيل من القرائن المهمة في بيان دلالات الخطاب، وكشف مواطن الخفاء؛ ولذلك يجب على المفسر أن يراعيها عند تصدِّيه لتفسير القرآن.

٣ ـ يجب على المفسر أن ينظر إلى النص القرآني نظرة شاملة، ويبحث عن عناصر التماسك النصي فيه، ويعينه على ذلك النظر في سياق الآيات، وذلك برد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، ليتوصل من هذا كله إلى فهم مقصود الشارع سبحانه وتعالى.

ومما يدلُّ على أهمية معرفة السياق التخاطبي للقرآن الكريم أن اجتهاد الصحابة يقدَّم على اجتهاد غيرهم، لأن «الاجتهاد في الأحكام إنما يكون بالتأمُّل في النصوص التي هي أصلٌ في أحكام الشرع، وذلك يختلف باختلاف الأحوال، ولأجله تظهر لهم المزية بمشاهدة أحوال الخطاب على غيرهم ممن لم يشاهده»[2]. ودراسة ملابسات الخطاب ودلالاتِها في القرآن الكريم لا يمكن أن يحيط بها البحث، لكثرة الملابسات وتنوّعها، ولذلك يمكن الاكتفاء ببعض الأمثلة التي قد تغني عن غيرها وتبرز أثر هذه الظاهرة بشكل عام.

---

(١) الموافقات: (٣/٤١٣ ـ ٤١٤).

(٢) أصول السرخسي: (٢/١٠٩).

(١) مكان النـزول وزمانه:

يحتاج دارس القرآن الكريم إلى معرفة مكان النـزول وزمانه، وقد نقل الزركشي عن أبي القاسم النيسابوري قوله: إن «من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي... ثم ما نزل ليلاً، وما نزل نَهاراً... هذه خمسة وعشرون وجهاً، من لم يعرفها ويميِّز بينها لم يحلَّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى»[(١)].

وتبدو جهود العلماء بارزة في هذا المجال، إذ تتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة، لترتيبها على وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب.

وللعلماء آراء مختلفة في تحديد المكي والمدني وهذه الآراء تستند إلى المعايير الآتية:

١ ـ مراعاة زمن النـزول: فالمكي هو ما نزل قبل الهجرة، وإن كان في غير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان في غير المدينة.

٢ ـ مراعاة مكان النـزول، فالمكي هو ما نزل بمكة وما حولها، والمدني ما نزل بالمدينة وما حولها، سواء أكان قبل الهجرة أم بعدها.

٣ ـ مراعاة الخطاب: فالمكي هو ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة، ويُبنى على هذا أن ما في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكي، وما فيه من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مدني[(٢)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: (١/١٩٢).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (١/١٨٧ ـ ١٨٩)، والإتقان في علوم القرآن: (١/٢٣)، ومباحث في علوم القرآن: ٦٩.



وهناك علامات أُخَر تتصل بالخطاب، منها:

أ ـ كل سورة ذكرت فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية إلا سورة البقرة فهي مدنية.

ب ـ كل سورة تفتح بالحروف المقطعة فهي مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران.

جـ ـ كلُّ سورة فيها سجدة فهي مكية.

د ـ كلُّ سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية[١].

وهناك مميزات تتصل بموضوع الخطاب وأسلوبه اقتضتها طبيعة المرحلة الزمنية في مكة، وظروف البيئة المحيطة، وطبيعة المخاطبين، وأهم مميزات القرآن المكي ما يأتي:

١ ـ الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وإثبات الرسالة، والبعث والجزاء وذكر القيامة، ومجادلة المشركين بالآيات الكونية والبراهين العقلية.

٢ ـ وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية.

٣ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة تسليةً لرسول الله ﷺ وزجراً للمشركين حتى يعتبروا بمصير المكذبين من قبلهم.

٤ ـ يغلب عليها قصر الفواصل وقوة الألفاظ، وإيجاز العبارة وتأكيد المعنى بكثرة القسم.

وهناك مميزاتٌ تتصل بموضوع الخطاب القرآني وأسلوبه وطبيعة المخاطَبين في المدينة والظروف المحيطة بِهم، والحقبة الزمنية الجديدة، أهمها ما يأتي:

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: (١/٤٧ ـ ٤٨)، ومناهل العرفان: (١/١٣٨).

١ ـ بيان العبادات والمعاملات والحدود وقواعد السلم والحرب ومسائل التشريع وغير ذلك.

٢ ـ مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

٣ ـ الكشف عن سلوك المنافقين وبيان خطرهم على الإسلام والمسلمين.

٤ ـ طول المقاطع والآيات لتقرير الشريعة وبيان أهدافها[١]، وقد جاءت الآيات المدنية، طويلة هادئة، لتناسب تقرير الأحكام الشرعية وتتلاءم مع حال الاستقرار في المدينة[٢].

ويمكن القول: إن العلماء مزجوا بين ملابسات الخطاب، للوصول إلى دلالة النص، فزمن الخطاب يعرف من خلال تعرف مكان نزوله، وطبيعة الخطاب نفسه من حيث الموضوع والأسلوب، ونوع المخاطبين، ومقتضيات المرحلة الزمنية.

ومما يتصل بمكان النزول الحديث عن الحضري والسفري[٣]، فالخطاب الذي نزل في الحضر يناسب حياة الحضر، والخطاب الذي نزل في السفر يناسب وضع المسافرين ويتفق مع اهتماماتِهم.

ولعل أفضل معيار في التفريق بين المكي والمدني هو المعيار الزماني، لأنه يستوعب الزمان والمكان والمخاطبين، فالهجرة كانت فيصلاً بين مكانين مكة والمدينة، وزمانين: قبل الهجرة بما فيه من أذى واستضعاف للمؤمنين، وبعد الهجرة بما فيه من عزَّة واستقلال، ولذلك تبدو خصائص ما نزل قبل الهجرة متميزة من خصائص ما نزل بعدها، سواء أنزل في المدينة أم في

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن: ٦٨.

(٢) ينظر: القصة القرآنية هداية وبيان: ٢٢٨.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: (١/٥١ ـ ٥٧).



غيرها، فما نزل في مكة مثلاً ـ بعد الفتح ـ ينسجم مع خصائص القرآن المدني، وهذا لا يقلّل من أهمية مكان النزول بل يبين أن معرفة الزمان كانت من أساليب تحديد المكان في حال عدم وضوحه أو عدم وجود نقلٍ بذلك.

ولأهمية تحديد زمن النزول في دلالة الخطاب لم يكتف العلماء بالإشارة إلى ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها، بل بيّنوا ما نزل نَهاراً وما نزل ليلاً، وذكروا أن أكثر القرآن نزل نَهاراً[(١)]، وبحثوا في أول ما نزل وآخر ما نزل[(٢)].

والحديث عن زمن النُّزول يثير مسألتين مهمتين شغلتا الفكر العربي الإسلامي، الأولى: قِدَم القرآن وكونه في اللوح المحفوظ. والثانية: اختصاص المعنى بالمكان والزمان والسبب أو عدم اختصاصه. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أن زمن الخطاب يأخذ أبعاداً ثلاثة، البعد الأول: الزمن المطلق وهذا يتعلق بالجانب الغيبي للزمن في القرآن، والبعد الثاني: الزمن العام وهو ما يتعلق بتجدُّد القرآن واستمراره في العطاء ومناسبته لكل زمان ومكان، وتفاعُل المخاطبين معه في العالم كله منذ عهد الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، والبعد الثالث: الزمن الخاص، ويتعلق بالدلالة التاريخية للنزول، إذ أنزل القرآن منجَّماً على وفق الأحداث والمناسبات[(٣)]، وقد رصد العلماء مكان النزول وزمانه وأسباب النزول ليبرزوا الزمن الخاص للنزول، وقالوا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[(٤)].

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: (١/٥٨ ـ ٦٢).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (١/٢٠٦ ـ ٢١٠).

(٣) ينظر: الخطاب القرآني: ١٥٦.

(٤) ينظر: المحصول: (٤/٧٧)، والإبهاج في شرح المنهاج: (٢/١٨٥)، والقواعد والفوائد الأصولية: (١/٢٤١)، وإجابة السائل شرح بغية الآمل: ٣٣٣.

وقد ذكر العلماء أن من فوائد معرفة مكان النـزول وزمانه العلم بما نزل متأخراً وما نـزل متقدماً، ويفيد ذلك في أن المتأخر يكون ناسخاً، للمتقدم أو مخصِّصاً له، على قول من يرى تأخير المخصص[1].

إن معرفة زمن النـزول ومكانه بوصفهما من ملابسات الخطاب من أهم العوامل المساعدة على فهم النص ومعرفة قصد المخاطِب وغرض الخطاب، فضلاً عن تحديد الناسخ والمنسوخ والخاص والعام.

(٢) أسباب النـزول:

من أهم ملابسات الخطاب معرفة أسباب النـزول، فهي تكشف عن ظروف التنـزيل ومناسبة النص للواقع.

وقد ذكر العلماء أن من العلوم التي يحتاجها مفسر القرآن الكريم معرفة أسباب النـزول، لأن لها مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد[2]، وتوضيح كثيرٍ من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر[3]، والغفلة عنها تؤدي إلى الخروج عن المقصود بالآيات[4]، أي: إنه «لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[5].

ويخطئ من يقول: إنه لا طائل من معرفة أسباب النـزول لجريانِها مجرى التاريخ، لأن لها فوائد أهمها ما يأتي:

١ ـ معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٢ ـ فهم المعنى المراد وإزالة الإشكال.

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: (٢٢/١).
(٢) ينظر: مناهل العرفان: (٤٤/٢).
(٣) ينظر: الموافقات: (٤١٤/٣).
(٤) ينظر: الموافقات: (٣٤٩/٣).
(٥) الإتقان في علوم القرآن: (٨٢/١).



٣ ـ تخصيص اللفظ العام[١].

ولصعوبة الإحاطة بأسباب النزول في القرآن كله سنقتصر على نماذج من الأسباب المتعلقة بالقصص القرآني، على الرغم من أنها قليلة. وتبدو صلة بعض القصص القرآني بأسباب النـزول من وجهين، أحدهما: مجيء القصة جواباً عن سؤالٍ من بعض معاصري رسول الله ﷺ، وثانيهما: استحضار القصة في حدث مشابه وقع في عهد الرسول ﷺ.

أولاً: القصص القرآني الوارد جواباً عن سؤال، مثل: قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين، إذ روي في سبب نزولهما أن قريشاً بعثت النضر ابن شميل وعقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ﷺ لأنّهم أهل الكتاب الأول، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره، فقال لهم الأحبار: اسألوه عن ثلاثٍ: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فقد كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن نبأ رجلٍ طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربَها، وسلوه عن الروح ما هو، فقَدِما على قريش فقالا: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه، فقال: «**أخبركم غداً بما سألتم عنه**» ولم يستثنِ، فانصرفوا ومكث رسول الله ﷺ خمسَ عشرةَ ليلة لا يوحى إليه، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحزن رسول الله ﷺ من مكث الوحي، وشقَّ عليه كلام أهل مكة، ثم نزلت سورة الكهف وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف[٢]، ونزل خبر الروح في سورة الإسراء، في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: (١/٢٢)، والإتقان في علوم القرآن: (١/٨٧).

(٢) ينظر: جامع البيان: (١٥/١٩١)، وأسباب النزول: ١٩٢ ـ ١٩٣، ١٩٧، ولباب النقول في أسباب النـزول: ١٤٣.

إن بيان سبب نزول قصتَي أهل الكهف وذي القرنين يدل على تفاعل النص مع الواقع الاجتماعي وبيان ذلك فيما يأتي:

١ ـ على الرغم من أن الآيات تقصُّ أخباراً ماضية، فقد جاءت تعبيراً عن موقف معاصر في عهد رسول الله ﷺ وتلبيةً لحاجةٍ اقتضتها طبيعة الدعوة والصراع مع الكافرين، ودليلاً قاطعاً على صدق رسالة محمد ﷺ.

٢ ـ يبين سبب النزول طبيعية المخاطبين التي تتسم بالعناد ومحاولة تعجيز رسول الله ﷺ، وفي قصة ذي القرنين إشارة إلى المخاطبين الذين سألوا عن القصة، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: ٨٣].

٣ ـ يصوِّر سببُ النزول الحالَ الذي نزلت فيه الآيات والظروف المحيطة بِها، ويُبرِز مشاعر المخاطبين وأحاسيسهم وهمومهم، وخلجات نفوسهم، فحين سأل أهلُ مكة رسولَ الله ﷺ عن تلك المسائل، ووعدهم بالإجابة في اليوم الثاني، وتأخر الوحي فرح أهل مكة ونشروا الإشاعات وتفاخروا بالنصر المعنوي على رسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ حزن حزناً شديداً، وضاق ذرعاً بإشاعات أهل مكة، وهذا التحليل الدقيق للشخصيات يسهم في بيان دلالات الآيات ويكشف عن مقصودها.

ثانياً: القصص القرآنِي الذي يُستحضر في حدثٍ مشابه في عهد الرسول ﷺ، حين يتشابه السياقان فتكون القصة مناسبة للحدث الجديد، وكثيرٌ من القصص القرآني يأتي لمعالجة أحداث مشابِهة، إذ يردُ «في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها والطريقة التي تؤدَّى بِها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه،

وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقِّق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب»[1].

وقد نزل أكثر القصص القرآني في مكة تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتاً له في مواقف الأذى والتكذيب المشابِهة للمواقف التي لاقاها الأنبياء، بل إن قصص الأنبياء تصوِّر مواقف أشدَّ وأعتى من الأذى والتكذيب والتهديد بالقتل والطرد، لكن هذه القصص كلها انتهت بِهلاك المكذِّبين وانتصار المؤمنين.

وقد تحصل حادثة معينة تتشابه مع حادثة في قصة قديمة، فيستظهر السياق تلك القصة إشارةً إلى تشابه الحادثتين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، ذكر الواحدي (ت٤٦٨هـ) أنها «نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى[2] ليذهبوا معه إلى الله تعالى، فلما ذهبوا معه إلى الميقات سمعوا كلام الله تعالى، وهو يأمره وينهاه، ثم رجعوا إلى قومهم، فأما الصادقون فأدَّوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله في آخر كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، ولا بأس»[3].

وذكر الطبري أن معنى الآية «كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم.... وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونَهيه ثم يبدِّله ويحرِّفه ويجحده، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق ـ وهم لا يسمعونه من الله وإنما يسمعونه

---

(١) في ظلال القرآن: (١/٥٥).

(٢) يعدُّ الواحدي ما حدث في عهد موسى عليه السلام سبباً لنزول الآية، وفي هذا تجوُّز، لأن أسباب النزول تقتصر ـ في الأصح ـ على الأحداث الواقعة في عهد رسول الله ﷺ والصواب أن الآية تعالج قضية العلاقة مع اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ، والله أعلم.

(٣) أسباب النزول: ٢٥.

منكم ـ . . . من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جلَّ ثناؤه ثم حرّفوه من بعد ما عقلوه وعلموه، متعمّدين التحريف»[1].

وهذا يبيّن كيف تمَّ توظيف الحدث التاريخي في قصة بني إسرائيل في معالجة قضية العلاقة مع اليهود، ومعرفة السياق التاريخي من عوامل ظهور الدلالة، فضلاً عن استحضار السياق اللغوي بالإشارة إلى حدث من أحداث قصة موسى ذُكر في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وخلاصة الكلام في أهمية استحضار السياق التخاطبي بكلِّ ملابساته أنَّ فهم قصد الشارع في القرآن الكريم لا يحصل على الوجه الأكمل إلا بمراعاة حال المخاطِب، والمخاطَب، وموضوع الخطاب، وغرضه، ومكان النزول وزمانه، وأسباب النزول، وكل ما يحيط بالنص من ظروف.

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن البحث حرص على السير وراء النص القرآني، وحاول أن يبتعد عن التعسُّف أو تحميل النص ما لا يحتمل، واختار من المصطلحات ما كان مألوفاً في التراث العربي الإسلامي، ولعل من المناسب في هذا السياق أن نورد نصًا رائعاً للإمام الشاطبي رحمه الله، يؤيِّد ما ذهب إليه البحث فيما سبق، إذ قال: «معرفة أسباب التنزيل لازمةٌ لمن أراد علم القرآن والدليل على ذلك أمران، أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يُعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حالِ الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبَين، وبحسب

(١) جامع البيان: (٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨).



غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معانٍ أُخَر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدلُّ على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتُها مقتضيات الأحوال، وليس كلُّ حالٍ يُنقَل، ولا كلُّ قرينةٍ تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملةً أو فهم شيءٍ منه. ومعرفة الأسباب رافعةٌ لكلِّ مُشكل في هذا النمط، فهي من المهِمّات في فهم الكتاب بلا بُد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، وينشأ عن هذا الوجهِ الوجهُ الثاني وهو أنَّ الجهل بأسباب التنزيل مُوقعٌ في الشُّبَه والإشكالات، ومُوردٌ للنصوص الظاهرة مَورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظَنَّة وقوع النزاع»(١).

ويمكن أن يُستلخص من هذا النص المهمّ ما يأتي:

١ ـ إن معرفة إعجاز نظم القرآن لا تقتصر على المستوى الدلالي للألفاظ والتراكيب، وإنما تقتضي الإحاطة بالسياق المقامي التخاطبي، أي: معرفة مقتضيات الأحوال (سياق الحال)، وتشمل حال المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب وغرضه.

٢ ـ إن الخطاب قد يخلو من القرائن اللغوية الدالَّة على حال المخاطِب أو المخاطَب أو الخطاب، فيحدث الإشكال، ويخفى مراد المخاطِب ودلالة الخطاب، وفي هذه الحال يجد المفسِّر في سبب النزول بغيته، إذْ يبين مقتضى الحال وملابسات الخطاب، وقد يكشف عن حال المخاطِب والمخاطَب وغرض الخطاب ومكان النزول وزمانه والظروف المحيطة به.

٣ ـ الجهل بأسباب النزول ومقتضى الحال يوقع في الإشكال، ويسبِّب الاختلاف والنزاع بين العلماء.

(١) الموافقات: (٣/٣٤٧).

٤ ـ يشير النص إلى بعض المصطلحات المهمة التي أصبحت شائعة في الدراسات اللسانية الحديثة مثل الخطاب والمخاطِب والمخاطَب، وفي هذا دليل على أن العلماء القدامى قد درسوا القرآن الكريم في ضوء سياق التخاطب، وراعَوا كلَّ ملابسات الخطاب وظروفه، ويكونون بذلك قد سبقوا أصحاب نظريات الخطاب والتلقي بمئات السنين.

